

الظاهرة الدينية عند ماكس فيبر

Max Wieber's religious phenomenon

الأستاذة: خيدر جميلة¹¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، djamila.docdorat@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/10 تاريخ القبول: 2021/09/13 تاريخ النشر: 2021/10/07

ملخص:

سعت هذه الورقة البحثية إلى عرض الظاهرة الدينية عند عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر وتحليلها، وذلك نظرا إلى أنه قد درس مجموعة من العقائد والأديان، مثل: المسيحية في كتابه: الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية، واليهودية في كتابه: اليهودية القديمة، والهندوسية والبوذية في كتابه: الهندوسية والبوذية، والكنفوشيوسية والطاوية في كتابه الموسوم بـ: الكنفوشيوسية والطاوية... إلخ.

فحاولنا في البداية تقديم نبذة عن السيرة الذاتية لماكس فيبر، ثم تطرقنا إلى طبيعة علم الاجتماع كما يراها فيبر، والتي تستند إلى مجموعة من التصورات، والأفكار، والمفاهيم، والنظريات، وانتقلنا بعدها إلى تقديم قراءة لعلم اجتماع الدين، عند فيبر، مع عرض أهم النتائج المتوصل إليها في الخاتمة. كلمات مفتاحية: الفكر الاجتماعي، الظاهرة الدينية، سوسيولوجيا فيبر، سوسيولوجيا الدين.

Abstract:

This research paper sought to present and analyze the religious phenomenon of the German sociologist Max Weber, given that he had studied a group of beliefs and religions, such as: Christianity in his book: The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, and Judaism in his book: Ancient Judaism, and Hinduism and Buddhism in his book: Hinduism and Buddhism,

Confucianism and Taoism in his book entitled: Confucianism and Taoism...etc

We first tried to provide a biography of Max Weber, then we touched on the nature of sociology as seen by Weber, which is based on a set of perceptions, ideas, concepts, and theories, and then we moved to provide a reading of the sociology of religion, according to Weber, with the presentation of the most important results reached in the conclusion.

Keywords: social thought, religious phenomenon, the sociology of Weber, the sociology of religion.

1. مقدمة

يعد الدين جوهر الحضارات الإنسانية عبر العصور، فلقد أكد الباحثون أن جميع الحضارات القديمة لها ارتباط وثيق بالدين، ومن بينها الديانات الخمس التي ذكرها فيبر، وهي: المسيحية، والإسلام، والهندوسية، والكنفوشيوسية، والبوذية، ولا شك أن الدين هو الذي يهب لكل مجتمع من المجتمعات هويته الخاصة التي تميزه عن المجتمعات الأخرى.

وهكذا، يشكل الدين وما يتصل به من ممارسات، وطقوس، وبنى تنظيمية أسئلة محورية اهتم بها رواد علم الاجتماع، وكانت هذه الأسئلة قد دفعت بهم إلى تناول موضوع الدين بشكل مباشر، ربما لن نكون مبالغين إن قلنا: أن معالجتهم للقضايا التي يطرحها مكنتهم من بلورة مفاهيم محورية في إسهاماتهم النظرية التي أثرت، وبشكل عميق، في علم الاجتماع (أبو بكر أحمد باقادر، ص93).

ويعد ماكس فيبر أهم رواد علم الاجتماع الذين اهتموا بدراسة الدين من جوانب عديدة، ويعود له الفضل في تأسيس فرع علم "اجتماع الدين" بمفهومه الحديث والمعاصر؛ فالدين في نظره مهم وضروري في الحياة، وهو محفز للقيام بالفعل العقلاني.

ومن هذا المنطلق، سنحاول تسليط الضوء على وجهة نظر ماكس فيبر الخاصة بالظاهرة الدينية، والكشف عن أهم المفاهيم والقضايا التي قدمها في هذا المجال.

2. نبذة عن سيرته الذاتية

ولد كارل إميل ماكسيميليان فيبر (Karl Emil Maximilian Weber) في مدينة إيرفورت بألمانيا في عام 1864، في وسط عائلي بروتستانتي من الطبقة الثرية. كانت عائلته كبيرة وتحوي موظفين كبار وأساتذة جامعيين، بالإضافة إلى شخصيات سياسية وفلسفية كبيرة. ومنذ شبابه الباكر راح ماكس فيبر يقرأ كبار المفكرين من أمثال ماركس، ونيتشه، وهيغل، وكانط. وقد شغف بالتاريخ والفلسفة، وعلم اللاهوت، والجماليات، إلخ. ثم واصل دروسه في كلية الحقوق والاقتصاد، وراح يحضر أطروحة جامعية عن المجتمعات التجارية في القرون الوسطى. وبعد أن ناقش هذه الأطروحة أمام كبار الأساتذة، وبحضور حشد من الطلاب منحوه شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الأولى، وبدءاً من ذلك الوقت راحوا ينظرون إليه على أنه أحد كبار علماء الاجتماع. ثم عينوه أستاذاً في جامعة فرايبورغ أولاً (1894) وجامعة هايدلبرغ ثانياً (1896) حيث درس علم الاقتصاد السياسي.

ولقد عانى فيبر من انهيار عصبي في عام 1898، أدى إلى انسحابه من التدريس الأكاديمي، إلا أن ذلك الانسحاب لم يؤثر على تدفق كتاباته، وفي عام 1903 أسس فيبر مجلة عنوانها: "أرشيفات العلوم الاجتماعية والعلوم السياسية". ثم شارك في عام 1910 في تأسيس الرابطة الألمانية لعلم الاجتماع. وبعدئذ انخرط فيبر في العمل السياسي المحض، وأصبح معارضا سياسيا للإمبراطور غليوم الثاني وعضوا فاعلا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. وشارك بعد الحرب العالمية الأولى كعضو في الوفد الألماني إلى مؤتمر السلام الذي

انعقد في فرساي عام 1919. وقد طلبت منه السلطات بعدئذ بلورة دستور جديد للجمهورية الألمانية. ثم تولى كرسي علم الاجتماع في جامعة ميونيخ عام 1918، ولكنه مات بشكل مفاجئ ومبكر في عام 1920 بمدينة ميونخ الألمانية.

3. سوسيولوجيا ماكس فيبر

يعد فيبر من أهم السوسيولوجيين الألمان الذين أرسوا دعائم السوسيولوجيا التأويلية، بتجاوز التفسير العلمي نحو التأويل الذاتي والإنساني. وبتعبير آخر، لقد أخرج فيبر علم الاجتماع من أسر التفسير نحو الفهم والتأويل، بالتركيز على الفعل المجتمعي بدل البنية المجتمعية، والتمييز بين العلوم الوضعية القائمة على التفسير السببي، والعلوم الإنسانية والروحية المبنية على فهم الذات وتأويل تجاربها داخل العالم المرصود. ولقد انحاز فيبر إلى منهج العقلانية، ورفض المناهج القائمة على فكرة التطور أو الجدل أو التفسير المادي، واستبدل البنية التحتية بالبنية الفوقية، وجعل الثقافة هي الأساس في تحريك التاريخ والمجتمع والسياسة والاقتصاد، كما قال بتعددية الأسباب (جميل حمداوي، 2015، ص 6-7).

ولقد حظيت سوسيولوجيا فيبر في فرنسا، بتلقي بطيء وصعب في نفس الوقت، وذلك يعود إلى وجود موانع فلسفية، وسياسية، وأكاديمية، ومنهجية، إضافة إلى موانع علمانية-دينية، بين ألمانيا وفرنسا.

وتجدر الإشارة إلى أن علم إجماع الأديان عند فيبر لم يقتصر على الديانة الكاثوليكية، كما أنه لم يهتم في المحل الأول بموضوع العلاقة بين المؤسسات الكنيسة وبين الأفراد، إنما اهتم بسلوك الفاعلين وبمدى التأثير والصدى الذي يحدثونه، كل ذلك لم يسهل من استقبال سوسيولوجيا فيبر في بلد ذي ثقافة كاثوليكية تتميز بقدر كبير من التمثيل المؤسسي والإكليريكي للنشاط الديني في فرنسا (دانيال هيرفميليجه، جان بول ويلام، 2005، ص 87-88).

هذا، علاوة على أن فيبر يعتمد على منهج الفهم في دراسة السلوك الاجتماعي، ورصد أشكال الهيمنة والسلطة، ويعني هذا أنه من مؤسسي مدرسة الفهم في علم الاجتماع، وأن منهجيته تهدف إلى فهم معنى التفاعلات السلوكية للأفراد داخل المجتمع. أي: يدرس علم الاجتماع العمل الاجتماعي (**action social**) الذي يقصد به مجموعة من الوسائل التي يستند إليها المجتمع للحفاظ على اتساقه وانسجامه، وخاصة الوسائل القانونية والتنظيمية أو الأعمال التي تدفع الأفراد والجماعات التي تعي نوعا ما من الهشاشة إلى العيش الكريم، والانصهار في وحدة المجتمع.

ولقد تبلور هذا المنهج القائم على دراسة التفاعلات القائمة بين الأفراد في كتابه: الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، الذي نشره في شكل مقالين سنتي 1904 و1905، حيث درس فيهما أثر العوامل الدينية في ظهور العقلانية، وكيف ساهم الإصلاح البروتستانتي في نشأة الاقتصاد الرأسمالي المادي. ومن ثم، فقد ركز فيبر على العقلانية، واعتبرها مظهرا من مظاهر الحضارة الغربية، وقد جاءت مرافقة لنشوء الرأسمالية (الاقتصاد العقلاني) والبيروقراطية (الادارة العقلانية).

ومن هنا، فالدين البروتستانتي، باعتباره فعلا ايجابيا، هو المحرك الحقيقي للعقلانية والحدثة والاقتصاد الرأسمالي، وقد أهله لقيادة حداثة كونية وتقديم نظرة عقلانية لرؤية العالم؛ وهذا ما جعل فيبر من مؤسسي علم اجتماع الأديان. وعلى العموم، يتميز المنهج الفيبري بالتعدد لوجود ثلاثة أسس أو خطوات تطبيقية هي: الفهم، والتأويل، والتفسير. بيد أن الفهم هو المعبر في دراسة الظواهر المجتمعية، وهو الذي يتحكم في التأويل والتفسير معا لتقديم تحليل جيد وأفضل وملائم (جميل حمداوي، دت، ص26).

أما علم الاجتماع السياسي عند فيبر، فيقصد به علم السلطة والحكومة والولاية والقيادة في كل المجتمعات وفي كل المجموعات البشرية، لذا، تنبني السوسيولوجيا السياسية عند فيبر على مجموعة من التصورات النظرية التي يمكن تحديدها في الأفكار التالية: العنف المشروع أو المبرر، حيث يرى فيبر أن الدولة تتميز بالقوة والعنف وتمارس ما يسمى بمشروعية العنف. ويعني هذا أن الفرد ليس له الحق في ممارسة العنف مهما كانت قيمته الاجتماعية، ومكانته الوظيفية في المجتمع. فالدولة هي المؤسسة الوحيدة التي لها الحق في ممارسة العنف والقوة باسم القانون، والتشريع، والدستور. ويكون العنف المبرر- هنا- بالسجن، أو المراقبة أو معاقبة المجرم، وإصدار اللوائح القانونية التي تجرم الفعل الإجرامي الذي قام به الفاعل الاجتماعي (جميل حمداوي، 2015، ص 33).

لذا، يخضع الناس لتلك الدولة وفق أسباب داخلية ثلاثة تبرر تلك السيطرة أو تلك الهيمنة السياسية التي تفرضها الدولة على مواطنيها:

-السبب الأول هو نفوذ الماضي، ويحيلنا هذا على العادات والتقاليد والأعراف والطقوس المقدسة التي تجعل الشيخ أو السيد الإقطاعي يسيطر على السلطة، وهنا نتحدث عن السلطة التقليدية.

-السبب الثاني هو السحر الشخصي والإلهام الخارق، ويحيلنا هذا على الزعيم البطل أو النبي أو القائد الملهم أو الزعيم النقابي أو القيادي الحزبي المتميز والمحنك. وهنا، نتحدث عن السلطة الكاريزمية.

-السبب الثالث هو الاحتكام إلى الشرعية، ويحيلنا على السلطة الشرعية العقلانية التي تقوم على الأسس التالية: الليبرالية، والانتخاب، والاستحقاق، والعقلانية، والشرعية، والبيروقراطية، واحترام الأدوار والوظائف (جميل حمداوي، 2015، ص 36).

كما يعد فيبر من مؤسسي علم الإدارة الحديثة، وقد تحدث كثيرا عن مجموعة من المفاهيم الإدارية والتنظيمية، مثل: السلطة، والشرعية، والبيروقراطية، والهرمية الإدارية، ومبدأ الكفاءة، ومن ثم، فقد أدلى بتصورات مهمة حول التنظيم والمنظمات. وبذلك، قدم فيبر أول تفسير منهجي لنشأة المنظمات الحديثة؛ فهو يعتبرها سبيلا لتنسي أنشطة البشر وما ينتجونه من سلع بأسلوب مستقر ومستمر عبر الزمان والمكان. وأكد فيبر أن نمو المنظمات يعتمد على السيطرة على المعلومات (جميل حمداوي، 2015، ص 34).

وخلاصة القول، أن فيبر يعد رائد علم الاجتماع الفهم، ورائد السوسيولوجيا السياسية، ومؤسس السوسيولوجيا الإدارية، وسوسيولوجيا الأديان، والفنون، ومن ثم، يتميز ماكس فيبر بتعدد الاختصاصات والعلوم والمعارف، فهو رجل فلسفة، وتاريخ، واقتصاد، وسياسة، وإدارة، ودين، وفن، وقد أثبت أن علم الاجتماع هو الذي يدرس الفعل الفردي أو سلوك الإنسان الذي يضيف عليه الفاعل معنى ذاتيا، سواء أكان صريحا أم ضمنيا، وهذا الفعل أنواع كثيرة، ومن ثم، فوحدة المجتمع هو الفرد الفاعل.

وتستند سوسيولوجيا ماكس فيبر إلى مجموعة من التصورات والأفكار والنظريات، كالجمع بين الخطوات المنهجية الثلاث: الفهم، والتفسير، والتأويل، وتمثل النموذج المثالي في دراسة الظواهر المجتمعية، على أساس أنه نموذج أو قالب أو براديجم مجرد قائم على مجموعة من المفاهيم للوصول الظاهرة المجتمعية المعطاة، برصد المكونات الجوهرية والبارزة والسمات الثانوية. ومن جهة أخرى، فقد ميز فيبر بين السلوك العقلي والسلوك اللاعقلي. فالأول يهدف إلى تحقيق هدف معين اعتمادا على وسائل محددة بدقة وعقلانية. أما السلوك الثاني، فهو سلوك عفوي وعشوائي، ينقصه التخطيط العقلاني، والمقصدية الهادفة. ومن ثم، يسير وفق العادات والتقاليد والأعراف.

ولم يقتصر عمل فيبر على ما هو اجتماعي، بل اهتم بالجوانب الإدارية (البيروقراطية)، والجوانب السياسية (العنف المشروع، وأشكال الهيمنة السياسية)، والجوانب الدينية (ربط الاقتصاد الرأسمالي بالعوامل الروحية)، والاهتمام بالفن الموسيقي على سبيل الخصوص. واهتم كذلك بسوسيولوجيا الشغل وسوسيولوجيا التربية (جميل حمداوي، 2015، ص ص 57-58).

4. سوسيولوجيا الدين

يعتبر فيبر من السابقين إلى تأسيس سوسيولوجيا الأديان، إذ اهتم بدراسة البروتستانتية، والكاثوليكية، واليهودية، والكونفوشيوسية، والهندوسية، والطاوية، والإسلام. فقد رأى أن الدين البروتستاني، باعتباره بنية فوقية، هو الذي ساهم في ظهور النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية؛ لأن البروتستانتية تدعو إلى العمل والمبادرة والتنافس والاكْتساب المثمر، وتنمية الرأسمال، والإقبال على الحياة بكل مباحها ومتعها، وجمع الثروات لتحقيق الغنى، وفق دوافع سيكولوجية ومبادئ أخلاقية، مثل: الحرص، والشح، والاستثمار، والاقتصاد، والادخار، وحب العمل. في حين، تبعد الكاثوليكية الإنسان عن الدنيا، وتحثه على الزهد، والرهبانية، والاعتكاف الديني، بعيدا عن مشاغل الحياة ومشاكلها المادية. أما فيما يخص الديانات الشرقية، وخاصة الإسلام، فقد اعتبرها ديانات لاعقلانية، تسودها أفكار خرافية وسحرية معادية للعقل واللوغوس والمنطق. ولذلك، لم تتطور الأوضاع الاقتصادية في البلدان التي تنتشر فيها هذه الديانات؛ نظرا لإفتقادها- كما يزعم فيبر- إلى العقلانية في التخطيط والتدبير والتنظيم والتفكير.

وبناء على ما سبق، يتضح لنا أن فيبر درس مجموعة من العقائد والأديان، مثل: المسيحية في كتابه (الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية)، واليهودية في كتابه (اليهودية القديمة) والهندوسية والبوذية في كتابه (الهندوسية

والبوذية)، والكونفوشيوسية والطاوية في كتابه (الكونفوشيوسية والطاوية) وهذا يكون فيبر قد أسس- فعلا- لسوسيولوجيا الأديان من الناحية النظرية، ومن الناحية التطبيقية.

وبالنسبة إلى فيبر، فإنّ الدين هو نوع خاص من التصرف في المجتمع، أي في مجتمع ينبغي دراسة ظروفه وتأثيراته. ويتضمن المجال الخاص بالنشاط الديني تنظيما لعلاقات القوى "الخارقة" مع الإنسان كما يؤكد فيبر الذي يبقى شديد الحذر في تعريفه التمهيدي للظاهرة الدينية كما نراه. كما أنه يرفض بشكل خاص التحدث بدقة عن جوهر الدين، بالإضافة إلى ذلك، وضع فيبر ملاحظتين مهمتين من حيث نتائجهما:

1- إن الأشكال الأولى من التصرف الذي تدفعه عوامل دينية أو سحرية موجبة نحو العالم الدنيوي. فينبغي تحقيق الأعمال التي يوصي بها الدين أو السحر بهدف تحقيق السعادة والعمر المديد على الأرض، ويرى فيبر أن الدين يتعلق بالحياة الدنيا، حتى من خلال أي إشارة إلى نوع من أنواع الحياة الآخرة.

2- أما الانفصال الثاني الذي قام به فيبر، فهو رفضه تعريف الدين باللامعقول: إن الأعمال التي يشكل الدين أو السحر حافزا لها هي أعمال منطقية أو منطقية نسبية (جان بول ويليم، 2001، ص ص 39-40).

فالدين بالنسبة إلى فيبر، هو نوع خاص من أشكال العمل الجمعي أو الطائفي يستوجب دراسة الظروف الخاصة به والنتائج التي يفضي إليها. بداية، لا يتناول فيبر الأديان باعتبارها نظما من المعتقدات، إنما ينظر إليها باعتبارها "أنساقا لتنظيم الحياة"، و"منظومات" استطاعت أن توحد من حولها جموعا كبيرة من المؤمنين بشكل خاص (دانيال هيرفمليجييه، جان بول ويلام، 2005، ص 92).

علاوة على ذلك، يؤكد فيبر، أن الدين لا يخص العالم الآخر بل يخص هذا العالم الأرضي: حيث أن فوائد الخلاص المقترحة من قبل كل الأديان، سواء كانت أديانا بدائية أم أديانا جمعية، سواء كانت أديان الرسل والأنبياء أم أديانا أخرى، كلها تتعلق بداية وبشكل مكثف جدا بهذا العالم: الصحة، طول العمر، الثروة، تلك هي وعود الأديان الصينية، الفيدية الهندية، الزرادشتية، اليهودية القديمة، الإسلامية، تماما مثل الديانات الفينيقية، المصرية، البابلية والجرمانية القديمة. تلك كانت أيضا الوعود التي بشرت بها الهندوسية والكونفوشيوسية رهبانها العلمانيين، إن البراعة والموهبة الدينية وحدها-الراهب، الصوفي، الدرويش-تصوب نحو فائدة الخلاص " في عالم آخر" بالمقارنة مع الفوائد الأرضية التي يثقل بها هذا العالم. إن فيبر يعرض بدقة إلى أي حد ساهمت بعض التعبيرات الدينية بشكل كبير في عقلنة العالم وإزالة الطابع السحري عنه، ويرفض الربط بين اللاعقلنة وبين الدين: الأعمال التي تنتج عن دوافع دينية أو سحرية هي أعمال عقلانية، على الأقل نسبيا (دانيل هيرفمليجييه، جان بول ويلام، 2005، ص ص 93-94).

ولقد سعى فيبر إلى اقتراح تحليلا للظاهرة الدينية من منطلق علم الاجتماع (جانبولييم، 2001، ص 9)، حيث أظهر اعتماده على التفسير الوظيفي بشكل خاص في تحليله السوسيولوجي للدين، حيث كان مغرما بالتساؤل كيف ولماذا تزدهر ديانات معينة بين جماعات معينة دون سواها. ويتساءل فيبر على سبيل المثال: لماذا تنتشر، في معظم الحالات، الديانات التي يبشر أنبيائها بالخلاص بين الشرائح الاجتماعية الأقل حظوة. وتأتي إجابته ذات طابع وظيفي لا يخطئه المرء: إن المضطهدين، أو على الأقل أولئك المهددين بالألم، كانوا بحاجة لمخلص ونبي؛ أما المحظوظون المتميزون، أي الشرائح الحاكمة، فلم يكونوا بمثل تلك الحاجة (ميكل تومبسون وآخرون، 1997، ص 254). وبهذا الصدد ينبغي

التوضيح، أن الوظائف التي يؤديها الدين (أشكال الاعتقاد والممارسة الدينية) حسب فيبر، تتنوع حسب نموذج حياة الجماعة (ميكمل تومبسون وآخرون، 1997، ص256).

في السياق نفسه، يقول ريمون آرون أن نقطة الانطلاق في دراسات فيبر عن علم الاجتماع الديني هي اعتقاده بأن فهم أي اتجاه يحتاج من الباحث إدراك تصور الفاعل للوجود بأكمله، إذ في ضوء هذا الاعتقاد حدد فيبر التساؤل التالي، لكي تجيب عليه دراساته: إلى أي مدى تؤثر التصورات الدينية عن العالم والوجود في السلوك الاقتصادي لكافة المجتمعات؟

إذ يعتقد آرون أن فيبر كان يريد أن يؤكد قضيتين هما:

- 1- أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في سياق تصورهم العام للوجود. وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيرها إحدى هذه التصورات للعالم التي تؤثر في سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك الاقتصادي.
- 2- أن التصورات الدينية هي بالفعل إحدى محددات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي تعد من بين أسباب تغير هذا السلوك.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن فيبر ومن خلال الدراسة الهامة، والتي كرس فيها جهده لفحص العلاقة بين روح الرأسمالية والأخلاقيات البروتستانتية، لم يكن يهتم فقط بإثبات العلاقة بين الدين والاقتصاد، بل كان يهدف إلى التعرف على التأثير المتبادل بين الظاهرتين. على أن فيبر لم يعالج الجوانب المختلفة للدين بوصفه ظاهرة اجتماعية بل اكتفى بدراسة الأخلاقيات للدين، ويقصد بها "ما يؤكد عليه الدين من قيم اقتصادية"، وهكذا يأخذ فيبر الأخلاقيات الاقتصادية باعتبارها نتاجا دينيا (محمد علي محمد، 1982، ص ص 236-237).

وفير نفسه كان يرى أنه من الصعب على المرء أن يتصور ماذا كان سيؤول إليه أمر (النشاط) الاقتصادي في أوروبا الغربية لو لم تأت البروتستانتية، وبالأخص الكلفانية بنمطها الأخلاقي القائم على التقشف والمثابرة في العمل واستثمار الثروة. ويتساءل عن مدى احتمال أو إمكان قيام مثل هذا (النسق) الاقتصادي بدون تلك الأخلاقية.

وهناك على أية حال من الدلائل والشواهد ما يشير إلى وجود علاقة بين الأخلاقية البروتستانتية وروح الرأسمالية، وبالتالي عدم إمكان تفسير "روح الرأسمالية" على أسس أخرى غير "الأخلاق البروتستانتية". وكل الدراسات الأخرى التي أجراها ماكس فيبر في هذا المجال والتي خصصها لدراسة أديان الصين والهند والمسيحية "البدائية" واليهودية تؤلف خطة عامة لقيام علم اجتماع مقارنة للأديان الكبرى. فالمنهج المقارن هنا منهج ضروري وأساسي لإثبات وجهة نظره والدفاع عنها. وقد عبر عن ذلك في سلسلة الدراسات التي ظهرت تحت عنوان: "الأخلاقيات الاقتصادية للأديان العالمية".

ويدور علم الاجتماع الديني المقارن عند فيبر حول مسألتين هامتين هما: هل يمكن أن نعثر خارج الحضارة الغربية على مشابه أو مماثل لذلك النوع من الزهد أو التقشف والتنسك الدنيوي الذي تتميز به الأخلاقية البروتستانتية، والتي تعتبر، الكلفانية خير وأفضل مثال لها؟ وما هي النماذج الأساسية المختلفة للتصورات الدينية، وما هي المواقف التي كانت تتخذها هذه التصورات إزاء الوجود والإجابات التي تقدمها في هذا الصدد؟ وقد تفرعت عن هاتين المسألتين بطبيعة الحال تساؤلات ومشاكل أخرى كثيرة فرعية. وليس من شك في أن ريمون أرون كان محققا فيما ذهب إليه من أن الشيء المهم في نظر فيبر كان هو تحليل التصور الديني للعالم، وتقديم تحليل للموقف الذي يقفه الناس إزاء الوجود، وذلك عن طريق تفسير وتأويل مكانتهم ومركزهم في ضوء تصور ديني معين بالذات.

ويكفي أن نقول أن ماكس فيبر كان يذهب إلى القول بوجود أصل واحد مشترك لكل عمليات التطور الديني، ويطلق عليه اسم "الدين البدائي العام"، وعنه ظهرت ونمت وتطورت نماذج وأنماط النسق الديني الأكثر تقدما وتطورا. فأنماط النسق الديني المتطور نشأت إذن نتيجة لعملية تغاير وتفاضل طويلة ومعقدة. ففي النمط البدائي يصعب التمييز على أساس عقلاني أو حتى على أساس الهدف أو الغاية من الفعل، بين ما يدخل مثلا في دائرة الدين وما يدخل في دائرة السحر، وبقول أعم بين العناصر الدينية والعناصر غير الدينية، ومع ذلك فإن كلام فيبر في أسس التمييز بين ما هو ديني وما هو غير ذلك، وبالذات بين الدين والسحر، كلام غامض إلى حد كبير (أحمد أبوزيد، 1982، ص ص 306-307 308).

وما ينبغي الإشارة إليه هنا، أن فيبر قد ركز بشدة أكبر في كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" على الأفكار (بمعنى المذاهب)؛ فالموضوع الرئيسي في هذا الكتاب هو ما قاله الناس حول الكيفية التي كان يجب أن يعيشوا بها، وليس الكيفية التي عاشوا بها فعلا (ميكل تومبسون وآخرون، 1997، ص 258). كما ركز في كتابه هذا على الترابط بين الدين والتغير الاجتماعي. وأدرج فيبر نظريته في علم اجتماع الأديان في علم اجتماع السيطرة، وركز كثيرا على أنواع ممارسة السلطة الدينية، وطبيعة الأشياء الروحية. إضافة إلى ذلك ركز على الميزتين الأساسيتين اللتين يتمتع بهما الدين كونه ظاهرة اجتماعية أي الرابط الاجتماعي الذي يولده ونوع السلطة الذي يسمح به (شتاتحة أم الخير، 2017، ص 254).

أما بخصوص أنواع السلطة الدينية، فإن فيبر يكونها انطلاقا من تحديده لأشكال تشريع السلطة المختلفة في الحياة الاجتماعية. وبالإمكان تشريع السلطة حسب فيبر عبر العقلية والقانون أو عبر التقاليد أو عبر الجاذبية الشعبية.

في المجال الديني، إن هذه الأشكال الثلاثة في تشريع السلطة تعرف الأنواع المثالية من "الكاهن" إلى "الساحر" و "النبي". "فالكاهن" يمثل السلطة الدينية الوظيفية التي تمارس ضمن مؤسسة بيروقراطية للخلاص. أما "الساحر" فيمثل السلطة الدينية التي تمارس أمام زبائن يعترفون بقدرات الحامل الشرعي لتقليد ما. أما "النبي"، فيمثل السلطة الدينية الشخصية التي يتمتع بها شخص معترف به على أساس رؤيا ينتفع منها (جان بول ويليم، 2001، ص44).

ولقد كان اهتمام فيبر الأساسي معرفة الاختلافات والفروق بين الأنساق الدينية المختلفة أكثر من المتشابهات بينها، فقد أجرى مقارنات عديدة بين سائر الطوائف الدينية القديمة والأديان الحديثة. فقد تناول فيبر دراسة الأنماط الأخلاقية الاقتصادية باعتبارها ناتجا دينيا، ووقع اختياره على بعض الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلامية وغير السماوية كالكونفوشيوسية والبوذية والهندية، متناولا دراسة طبيعة الأخلاقيات الاقتصادية لكل دين من هذه الديانات ثم دراسة آثار كل دين على التنظيم الاقتصادي والحياة الاجتماعية لكل الشعوب التي تعتنق هذه الديانات، وكان في كل دراساته يهتم بهدفه الرئيسي وهو الربط بين الاقتصاد والدين، ومما هو جدير بالذكر أن فيبر قد أبرز في دراساته المختلفة احترامه لأهمية الدين كقوة تكاملية في المجتمع وأهمية المعتقدات والممارسات الدينية في أحداث التغير الاجتماعي، وأهمية الدين ووظيفته ودوره في الاستقرار الاجتماعي (شتاتحة أم الخير، 2017، ص 256).

ولقد نشر في البدء مقالة مطولة بعنوان: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، يؤكد فيها فيبر أن الرأسمالية إنما ظهرت عند مجموعة من المنتمين إلى طائفة الكلفانيين، أو بالأصح، بشكل عام، عند أتباع المذهب البروتستانتي الذين كانت لهم بعض المعتقدات الدينية، وأن هذه المعتقدات هي التي تولدت عنها مجموعة من الأفكار والمفاهيم من أمثال: قيمة الوقت، وأن العمل رسالة

دينية في حياة الفرد، ومفهوم الزهد الديني والزهد الأخروي، ونشدان الخلاص عن طريق العمل المنظم بشكل عقلائي، وأنه رغم توغل وتعمق التفكير الديني عند هذه الجماعات الدينية فإنها انتهت بها إلى رسم القيم والتوجهات الأخلاقية والسلوكية التي شكلت القيم المؤلدة لنشأة الرأسمالية الحديثة. وهو بذلك يؤكد على أن ما دفع إلى ظهور الرأسمالية - بوصفها أسلوب انتاج أفرز بنية المجتمع الصناعي الحديث - إنما هو القيم الدينية.

ولقد قدم فيبر دراسات مقارنة غاية في الطموح، أوضح فيها أنه رغم توافر كافة الشروط التي يمكن لرأسماليات أخرى أن تظهر في الأديان الأخرى إلا أنها لم تنجح في إنتاجها. ولقد شملت الدراسات دراسته عن اليهودية القديمة، وأديان الهند، وأديان الصين، ولم تظهر دراساته التي كان ينوي نشرها عن الإسلام. ولقد أوضح فيبر في دراساته هذه أن هناك عوائق جوهرية داخلية في معتقدات هذه الأديان حالت دون تمكّنها من بلورة صيغة رأسمالية للإنتاج فيها! (أبو بكر أحمد باقادر، د.ت، ص ص 96-97).

إنَّ ما يهم فيبر أثناء مقارنته للأديان ليس التأويل الأيديولوجي للأديان، وإنَّما ذلك الفعل الذي ينتج تبعاً للتأثيرات التي تولدها الديانات على سلوك الأفراد وأفعالهم وتعطيهم معنى يستحق كل دراسة وتحليل؛ لذلك كانت دراسته حول الدين تهدف إلى الكشف عن الحوافز التي تدفع الفرد إلى الفعل، فهو لا ينظر إلى الفعل في حد ذاته وإنَّما يتجاوز ذلك إلى الأبعاد الدلالية لهذا الفعل وهذا هو الجديد الذي أتى به فيبر.

ومن هذا المنطلق، توصل فيبر إلى أنَّ أخلاق الدين المسيحي - وتحديداً البروتستانت (الكالفيني) - ساهم بشكل كبير في ظهور الرأسمالية، فرجال الأعمال وأصحاب الحيازات الرأسمالية، وكذا ممثلي الشرائع العليا المصنفة من اليد العاملة، وفق ذلك، الملاك التقني والتجاري ذا الثقافة الرفيعة في المؤسسات

الحديثة، هم بأغلبية من الطائفة البروتستانتية (عبد الرحمن فضلي، دت، ص 7).

وفيما عدا ذلك لم يقف فيبر عند حد دراسة العلاقة بين المذهب البروتستانتي وبين النظام الرأسمالي، لأن بعض البحوث الأخرى لا سيما البحوث المتعلقة بالاقتصاد الهندي والصيني أكدت وجهة نظر ماكس فيبر، وهي أن النظام الرأسمالي لا يرجع إلى أصول مادية، ويحتاج في نشأته ونموه إلى بيئات دينية ملائمة، وقد برهن في هذا الصدد على وجود علاقة وثيقة بين النظم الدينية والاقتصادية، وبصفة خاصة تأثير النظم الأولى وهي الدينية على النظم الاقتصادية (عبد الله الخريجي، 1990، ص ص 62-63).

كما قام فيبر بإحصاءات دقيقة أظهر فيها أن البلاد التي حملت مشعل الاقتصاديات عاليا تدين بالبروتستانتية (هولندا- إنجلترا- أمريكا)، وأن البلاد التي تدين بالكاثوليكية أو غير البروتستانتية قد بقيت متأخرة في ميدان الاقتصاد، وأن البروتستانتين في ألمانيا أسبق من سواهم على الاقتصاد (يوسف شلحت، 2003، ص 190).

وفي ذات السياق، يستنتج الباحث عبد الرحمن فضلي بعد تحليله لنظرية فيبر عن الدين؛ أن فيبر ينطلق من فكرة العقلنة ونزع السحر عن العالم، بحيث إنه كانت دراسته المقارنة للأديان هو اكتشاف مدى تأثير الديانات الأخرى على الفعل العقلاني، لكن توصل إلى أن الديانة البروتستانتية في صيغتها الكالفينية هي الوحيدة التي تؤثر على الفاعلين للقيام بأنشطة اقتصادية عقلانية، بينما الديانات الأخرى لا تهتم بالحياة اليومية بقدر ما تعمل من أجل الحياة الأخرى، ومن هنا يركز فيبر على علاقة الدين بالتغير الاجتماعي. ويمضي عبد الرحمن فضلي إلى الاستنتاج الذي مفاده أن فيبر اعتمد على أديان متعددة، سواء كانت توحيدية، أم غير توحيدية. فالدين عند فيبر مهم وضروري في الحياة،

فهو محفز للقيام بالفعل العقلاني. لكن ورغم كل الانتقادات، استطاع ماكس فيبر بناء نظرية عامة متماسكة في علم الاجتماع، وعلم الاجتماع الديني على وجه الخصوص؛ لذلك اعتبر هذا المفكر مرجعا مهما لكل باحث معاصر يريد أن يشتغل على الظاهرة الدينية في علم الاجتماع (عبد الرحمن فضلي، دت، ص ص 11-12).

5. خاتمة

لقد حاولنا من خلال هذه المقالة تسليط الضوء على الظاهرة الدينية، كأحد الموضوعات التي تقع في صلب اهتمام عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر-إلى جانب موضوعات أخرى كالسياسة، والقانون، والتربية، والفن، والعمل، والتنظيم- الذي أراد أن يؤسس لعلم اجتماع للدين يؤدي إلى فهم أفضل للجوانب الرئيسة للحضارة الغربية.

ولا شك أن فيبر-كما أسلفنا- سعى سعيا حثيثا إلى البرهنة على أن المعتقدات الدينية هي التي تؤثر في العامل الاقتصادي وليس العكس كما يرى كارل ماكس، وهذا ما حاول توضيحه في كتابه الموسوم: "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، إذ أكد أن العامل الأساسي الذي أدى إلى نشوء النظام الرأسمالي هو بروز الأخلاق الكالفنية ضمن البروتستانتية المسيحية في أوروبا الغربية، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، إلى جانب عوامل أخرى قد أشار إليها كالتقدم الحاصل في مجال التعليم، والبحث العلمي، والقانون...إلخ.

وهكذا يظهر بصورة جلية، عدم معالجة فيبر للجوانب المختلفة للظاهرة الدينية، ولكنه اكتفى بدراسة ما نستطيع أن نسميه بـ"الأخلاقيات الاقتصادية للدين"، وتأثيرها في حياة الشعوب ونظمها الاقتصادية، وعلى هذا الأساس يمكن القول، أن فيبر ربط بين الدين والاقتصاد، كما أنه لجأ إلى استخدام المنهج

التاريخي، والمنهج المقارن، من أجل إبراز دور الذهنيات، ولإسليم الأفكار الدينية في صناعة التاريخ.

ونستطيع القول في الأخير، أن فيبر قد قدم إسهاما متميزا في ميدان علم الاجتماع، بصورة عامة، وعلم الاجتماع الديني بخاصة، إذ أنه اتبع مسلكا نظريًا ومنهجيًا مختلفا عن أوجست كونت، وإميل دوركايم، على سبيل المثال، وما تزال الأسس التي أرسى عليها علم الاجتماع الحديث، مصدر إلهام بالنسبة إلى الباحثين إلى يومنا هذا.

6. قائمة المراجع:

المؤلفات:

-جميل، حمداوي، (2015)، جهود ماكس فيبر في مجال السوسيولوجيا، الألوكة، المغرب.

-دانيال، هيرفيه ليجيه و ويلام، جان بول، تر: درويش، الحلوجي.(2005)، سوسيولوجيا الدين، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة.

-عبد الله الخريجي، علم الاجتماع الديني، سلسلة دراسات في المجتمع العربي السعودي، الكتاب التاسع، رامتان-جدة، المملكة العربية السعودية، 1990.

-ميكل، تومبسون وآخرون، تر: علي سيد الصاوي، (يوليو 1997)، نظرية الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب، الكويت.

-محمد، علي محمد، (1982)، المفكرون الاجتماعيون قراءة معاصرة لأعمال خمسة من أعلام علم الاجتماع الغربي، دار النهضة العربية، بيروت.

- ويليم، جان بول، تر: بسمة علي، بدران، (2001)، الأديان في علم الاجتماع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.

- يوسف، شلحت، (2003)، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية-المهودية-النصرانية-الاسلام)، دار الفرابي، بيروت-لبنان.

المقالات:

-أبو بكر، أحمد، باقادر، (شتاء 2007)، الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية والدين، مجلة التسامح: فصلية فكرية اسلامية. ع17، ص92-105.

-أحمد أبوزيد، (أكتوبر-نوفمبر-ديسمبر 1982)، ماكس فيبر والظاهرة الدينية، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، ص. 287-310.

-شتاتحة أم الخير، (مارس 2017) الظاهرة الدينية بين المقاربات الكلاسيكية والحديثة، مجلّة العلوم الاسلامية والحضارة، العدد الخامس، ص235-276.

مواقع الانترنت:

-عبد الرحمن فضلي، (د.ت.ن)، السوسيولوجيا الكلاسيكية والظاهرة الدينية
نموذج إميل دوركايم وماكس فيبر، أوراق نماء 136، مركز نماء للبحوث
والدراسات، بيروت www.nama-center.com.